التصـوف في دراســات المستشـــرقين

لمى فائق أحمد
الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب

أولاً: مفهوم التصوف

للوصول الى معرفة أصل التصوف ونشأته تعرضت لمعنى كلمة (تصوف ، صوفي ، صوفية). تعددت التعاريف في حد التصوف ورسمه نورد بعضاً منها :-

قال دريم بن محمد البغدادي[1] ((التصوف مبني على ثلاث خصال ، التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل وترك الغرض والاختيار))[2].

وسُئل الجنيد[3] عن التصوف ، فقال : تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الاخـلاق الطبيعيـة، وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحيـة والتعلـق بـالعلوم الحقيقية . واستعمال اولى على الأبدية والنصح لجميع الامة والوفاء لله على الحقيقة وإتباع الرسـول (ص) في الشريعة[4].

فجميع المعاني كلها من التخلي عن الدنيا وعزوف النفس عنها وترك الأوطان ولزوم الأسفار ومنـع النفوس حظوظها وصفوة الأسرار وانشراح الصدور . وصوفي علـى زنـة عـوفي أي عافـاه الله فعوفي[5].

والصوفي واحد والجماعة صوفية ومن يتوصل الى ذلك متصوف والجماعة متصوفة. أما اشـتقاق لفظة (تصوف): فالقشيري يقول ((ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر انه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي))[6].

فالاشتقاق يحتمل أكثر من رأي: فهناك من نسب الكلمة الى (صوفية) وهو أسم رجل كان قد انفـرد بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام واسمه الغوث بن مر. فانتسب الصوفية اليه لمشابهتهم ايـاه في الانقطاع الى الله[7].

وعلم التصوف اتجاه جديد يعبر عن العاطفة الدينية في صفائها ونقائها وهو الجانب الروحي الـذي يعتمد على منطق الاشراق والمحبة ، يكشف الانسان فيه البعد المتعالي ليتحول الى انسان كامل فهـو يحاول لكشف حكمة الله في الحياة ، وقد تطور التصوف من بداية القرن الثالث الهجري الـى القـرن الثامن الهجري وكثرت الاصطلاحات فيه والمذاهب وادخلت عليه التغيرات والظواهر من حيث ترتيب

المقامات والاحوال ونظام السلوك والاداب، فانعكس ذلك على التصوف شعراً ونثراً ومن اشهر اعلامه (رابعة العدوية ، ذو النون المصري ، السهروردي الشامي ، ابن الفارض ، ....الخ)[8].

تبين اذن ان التصوف بدأ زهداً وتطور ليصبح بهذا الشكل خاصة في الادب الذي جاء متأثراً بكثير من أفكار الثقافة الاجنبية التي امتزجت بالفكر العربي عن طريق الفتوحات الاسلامية وازدهار حركة الترجمة .

ويذهب بعض المستشرقين الى آراء متباينة في مفهوم التصوف فبعضهم يميل الى ان كلمة صوفي مأخوذة من (صوفيا) اليونانية بمعنى الحكمة أومأخوذة من (ثيوصوفيا) بمعنى الاشراق ووافق هذا الرأي كل من (فون همر)[9]الذي أكد ان ثمة علاقة بين الصوفية وبين الحكماء العراة الهنود وكأن الكلمتين العربيتين (صوفي وصافي) ترجع الى نفس المصدر[10].

أما (تيودورنولدكه) المستشرق الالماني بين ان الكلمة اليونانية السابقة غير معروفة في الارامية ولهذا يصعب العثور عليها في العربية نقلاً عن الارامية وليس هناك دليل على كلمة صوفي مشتقة من الغربية، بينما اشتقاق العربية تقره اللغة العربية[11].

وقد أيد هذا الرأي البيروني(ت 440هـ) بقوله : فإن (سوف) باليونانية الحكمة وبها سمي الفيلسوف (بيلاسوفيا) أي محب الحكمة ولما ذهب في الاسلام قوم الى قريب من رأيهم سموا بأسمهم ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم للتوكل الى (الصفة) وانهم اصحابها في عصر النبي (ص)[12].

أما جرجي زيدان فكان قوله مؤيداً لهذا الرأي ((انها مشتقة من لفظة يونانية الاصل هي سوفيا ومعناها الحكمة فيكون الصوفية قد لقبوا بذلك نسبة الى الحكمة، لانهم كانوا يبحثون فيما يقولونه أو يكونونه بحثاً فلسفياً، يؤيد ذلك لانهم لم يظهروا بعلمهم هذا ولاعرفوا بهذه الصفة الا بعد ترجمة كتب اليونان الى العربية ودخول لغة الفلسفة فيها[13].

وعلى مايبدو ان هذا الرأي مردود وذلك لجملة اسباب:

1- ان كلمة تصوف كانت موجودة في ادبيات العرب المسلمين قبل الاطلاع على الكتب اليونانية .

2- ان الممارسات الصوفية (الزهد) التي كان يمارسها الصحابة الاوائل تدل على أصول هذا العلم الا ان شيوع هذه الممارسات أدى الى عدم تمييز أصحابها حتى انتشر الاسلام في ربوع البلاد الاخرى وظهر الترف عند قادة المسلمين، قاد ذلك الى ظهور الدعوة الى التمسك بتقاليد الاسلام والمسلمين والاخلاقيات العامة وعدم الاشراف فنشأ هذا السيار(الصوفية) وعرفوا باتجاههم فيما بعد .

3- ان تأخر ظهور تقنين علم التصوف يعود الى ماتقدم من تغيير في الحياة العامة عند المسلمين بعد الفتوحات واتساع رقعة الاسلام والواردات الكبيرة من الاراضي المفتوحة فكان رد الفعل (الصوفية) التي أخذت تضع قوانينها ومسمياتها فيما بعد وليس بسبب الاطلاع على الكتب اليونانية . وقد رفض

هذا الرأي (اوليري) والذي أكده بقوله: والاعظم من ذلك خطأ افتراض بعض الكتاب الغربيين ان كلمة تصوف هي ترجمة حرفية لكلمة sophos اليونانية[14].

وهناك باحثين آخرين من المستشرقين يؤكدون ان التصوف مشتقة من الصوف الذي يلبسه غالبية أهل هذا الطريق ويعتبر هذا الرأي هو رأي أغلبية الباحثين حيث ان أكثر ماتعتمد عليه في ذلك هو الاشتقاق اللغوي ولان علاقة بين ارتداء الصوف وبين التخفيف في متع الحياة والميل الى الزهادة والاتجاه الى التنسك، واصحاب هذا الرأي (نولدكة)[15] والذي جارى القشيري حينما رفض الرأي القائل باشتقاقها من الصفاء أو الصف ايضاً لاسباب لغوية، وقد حاكى نولدكة ونيكلسون[16] ابن خلدون في قوله: والاظهر ان قيل بالاشتقاق انه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف[17].

ووافق على هذا الرأي أيضا أوليري بقوله: أما كلمة صوفي فمشتقة من الصوف وهي بهذا تعني لابس الصوف، كناية عن الشخص الذي يستعمل بمحض اختياره أبسط أنواع اللباس، ويتجنب كل شكل من أشكال الترف أو العناية بالمظهر[18].

وجولدتسيهر[19]، وماسنيون[20]، الذي رفض بما أكده العلماء والمحدثون في أصل الكلمة كقولهم ان الصوفية نسبة الى أهل الصفة[21]، أو انهم من الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه، أو من بني صوفية أو انهم نسبوا الى الصوفانة أو الى (صوفة القفا) وهي الشعرات النابتة عليه، وحتى إعادته الى سوفيا أو ثيوصوفيا[22]. وأكد على ان التصوف مصدر الفعل الخماسي المصوغ من (صوف) للدلالة على لبس الصوف، ومن ثم كان المتجرد لحياة الصوفية يسمى في الاسلام صوفيا[23].

واذا عدنا الى نيكلسون في حديثه عن التصوف، وقد بدأ بالحديث عن أصل كلمة (تصوف) واشتقاقها فنجده يقرر ان الزهاد المسلمين – وهم الصوفية قد تشبهوا برهبان النصارى في لبس الصوف[24] وشاركه ماسنيون في هذا الرأي فانه بعد ان قرر ان لبس الصوف مابرح من أخص أزياء المسلمين من أهل السنة، يعود فيقرر ان هذا الصوف قد استقبحه المسلمون منذ سنة 100للهجرة/ 719م لانهم اعتبروه دخيلا على الاسلام من النصرانية، وانهم عابوا على (فرقد السنجي)انه لبس الصوف[25].

فنرى هنا ان الاثنين يوهمان بأن لبس الصوف قد طرأ على المجتمع الاسلامي من تقليد الصوفية للرهبان عندما نرى نيكلسون يقرر ان مبادئ الصوفية كلها تكونت من تأثيرات خارجية غير اسلامية .

والقول ان لبس الصوف طارئ على صوفية المجتمع الاسلامي من تقليدهم للرهبان النصارى غير صحيح، لان لبس الصوف في المجتمع الاسلامي كان معروفاً قبل تكوين الجماعات الصوفية، وكان معروفاً في عهد النبوة . وقد جاء ان رسول الله (ص) كان يركب الحمار ويلبس الصوف، وعنه (ص)

انه قال:((يوم كلم الله تعالى موسى(ع) كان عليه جبة من صوف وسراويل من صوف وكساء من صوف[26])).

وروي عن رسول الله (ص) انه قال:(من لبس الصوف وأكل خبز الشعير وركب الاتان فليس فيه شئ من الكبر) وروي عنه (ص) انه قال: (البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أصناف البطون تدخلوا في ملكوت السماء)[27]. ومن المحتمل ان يكون الصوفية لبسوا الصوف أول الامر ليصح لهم الاقتداء بتواضع الرسول(ص)[28].

والواقع ان الصوف كان شارة الزهد وهو شعار الصالحين، وكان لبس الصوف يؤكد الخشوع[29].

ومن خلال ماتقدم من معاني لاصل التصوف يمكن القول ان التصوف نشأ من الزهد والتقشف وكبح الشهوات واذلال النفس وعلى هذا كان المتصوفة الاوائل في الاسلام امثال الحسن البصري وسفيان الثوري ورابعة العدوية وغيرهم من العباد والزهاد والنساك الذين كان شعارهم كلمة شيخهم الاعلى الامام علي بن ابي طالب (ع) الذي يقول: ((لا وان لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضئ بنور علمه الا وان إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمرية ومن طعمه بقرحية.. فوالله ماكنزت من دنياكم تبراً ولا ادخرت من غنائها وفراً ولا اعددت لبالي ثوباً طمراً...))[30].

ثانيا: الأصول الدينية والتصوف

يذهب كثير من المستشرقين الى ان كل ما يعتبر عالمياً أو عند الغرب من الامور الحسنة المرغوبة والتي تعتبر قضايا تمجدها عقولهم وتهفوا اليها نفوسهم ينسب الى الغرب في فكره المسيحي الماضي أو فكره الحضاري الحالي ويستبعدون كونه اسلامياً حتى ولو اشتهر به ونسبه الناس اليه سواء كان ذلك الأمر مما هو فعلياً من مصادر الفكر أو كان غير ذلك من الأمور (فكرة التصوف) فحين ظهر في الغرب تيار عارم يبحث عن الروح ويريد معرفة كنه الزهد والتصوف وما شاكلها وصار أكثر الذين أسلموا يميلون الى كتب الزهد والتصوف من أمثال كتاب أحياء علوم الدين للإمام الغزالي وغيره.

بدأ المستشرقون يكتبون عن هذا المسلك بطريقة يراد بها نفي الصوفية عن الإسلام مطلقاً، فصاروا يقولون بأن الصوفية والزهد ليسا من الإسلام وإنما هما مأخوذان من رهبانية النصارى ومسالك الهندوس ومذاهب اليونان ولعل التوجه نحو هذا المذهب الزهدي والتعمق فيه من قبل الغرب بدأ في أوائل القرن 19م، وكانت اولى نظراتهم فيه أو أول أهدافهم من بحوثهم حول هذا الموضوع هي محاولة إثبات ارتباطه بغيره من التصوف في الأديان الأخرى السابقة على الإسلام كالمسيحية والمجوسية والمانوية أو البوذية أو المذاهب الهندية القديمة والتدليل على انه مأخوذ منها أو متأثراً بها الى حد فقده ذاتيته ويبعد به قدر المستطاع عن الكتاب والسنة[31].

بدأت عناية الغربيين بدراسة التصوف الإسلامي في مستهل القرن 19م ولكنها كانت متجهة في أول أمرها نحو التصوف الفارسي فترجمت أشعار عدد غير قليل من شعراء الفرس من (عمر الخيام الى عبد الرحمن جامي)، ولكن هذه الحركة سرعان ما تناولت التصوف برمته، وأقبل الباحثون يعملون في الحدود الضيقة التي رسمتها لهم ظروفهم وأقسى هذه الظروف وأبعدها أثراً في نتائجهم قلة أصول التصوف المطبوعة[32]. وإجمال القول فقد عنا المستشرقين بدراسة التصوف الاسلامي وكانت آرائهم مختلفة في مسألة المصدر الذي يمكن ان يرد اليه هذا التصوف:-

1- الأصول الفارسية

من الباحثين من يرد التصوف الى أصول الديانة الفارسية التي ظهرت بخراسان حيث تلاقت الديانات والثقافات الشرقية وبعد دخول أهلها الإسلام صبغت بعض المبادئ الإسلامية بالصبغة الصوفية القديمة[33]، والديانة الفارسية هي ديانة زرادشتية انتشرت في ايران والمدن المجاورة لها وأصبح لها رجال دين وجمعت تعاليمها في كتاب يسمى (ابستاق) ولما انتشر الإسلام بفارس اعتنق أهلها الإسلام وقضى على هذه الديانة وجوهرها انها تؤمن بوجود الله أعظم عالم للماضي والحاضر وهو خالق الخلق ويخاطب زرادشت الإله كصديق ويمدحه حتى الموت، كما تعتقد هذه الديانة ان الخلاص من القيود المادية الى الحياة الروحية لا يكون إلا بالطهارة عن طريق التحرر النهائي من الجسد وقيوده، ويرد تأثير هذه الديانة على التصوف الى دور الفرس في الدولة العربية الإسلامية واشتغال رجالها في الدواوين والوزارات فنقلوا بعض أفكارهم[34].

ومن المستشرقين من ذهب الى القول بأن التصوف من مصدر فارسي (ثولك) من قدماء المستشرقين في القرن 19م والذي ذهب الى ان التصوف مأخوذ من أصل مجوسي وحجته في ذلك ان عدداً كبيراً من المجوس ظلوا على مجوسيتهم في شمال ايران بعد الفتح الإسلامي وان كثير من مشايخ الصوفية الكبار ظهروا في الشمال من أقليم خراسان وان بعض مؤسسي فرق الصوفية الاوائل كانوا من أصل مجوسي[35].

كما ان المستشرق الهولندي المعروف (دوزي) قال: ان الصوفية أنفسهم يحاولون الرجوع بمذهبهم لا الى الإمام علي(ع) أو النبي محمد(ص) فحسب بل الى قدماء الأنبياء أمثال النبي إبراهيم (ع) والأقرب الى الحقيقة في رأيه ان التصوف جاء اليهم من فارس حيث كان موجوداً قبل البعثة المحمدية وانه جاء الى هذه البلاد من الهند فقد ظهرت في فارس منذ أحقاب بعيدة[36]، وكانت إعادته الى أسباب وهي ان كبار شيوخ التصوف من أصل فارسي(كمعروف الكرخي وأبي يزيد البسطامي) وان بعض هؤلاء كان له أكبر الأثر فيما بعد في التصوف الفارسي كأبن عربي[37]. أما رأيه القائل بوجود أفكار مثل صدور كل شئ عن الله ورجوع كل شئ الى الله والقول ان العالم لاوجود له في ذاته وان الموجود

الحقيقي هو الله وكل هذه معان يفيض بها التصوف الاسلامي. والرد عليه هو ان مثل هذه الافكار لا توجد الاعند أصحاب وحدة الوجود الذين ظهروا في وقت متأخر(منذ القرن 6و 7هـ) وليس كل صوفية الإسلام قائلين بهذا المذهب وانما القائلون به قلة قليلة[38].

أما المستشرق (لاندو) فقد أكد ان التصوف الإسلامي كان في بداية الأمر حركة فارسية في الأعم الأغلب . فقد كان أبو يزيد الفارسي البسطامي[39] أول من وضح نظرية الفناء، وأكد الجنيد البغدادي على فكرة (الاتحاد) مع الذات الإلهية، وأطلق تلميذه الحلاج المتوفي عام (922) الكلمة الشهيرة التجديفية (أنا الحق) (أنا الحقيقة المبدعة، أو أنا الله) ومثل الصورة العليا للصوفي (النشوان) الذي يلمع الذات الإلهية في كل مظهر من مظاهر الوجود، حتى في ذات نفسه هو[40].

ولقد ذهب (الفرد فون كريمر) الى القول: بأن التصوف الإسلامي قد تحول في نهاية القرن (3هـ) أي عصر أبي يزيد البسطامي والجنيد والحلاج إلى حركة دينية انصبغت بصبغة وحدة الوجود التي تغلغلت فيه وأصبحت من مقوماته في العصور التالية[41].

2- الديانة الهندية

أما بالنسبة للديانة الهندية فقد تعددت الديانات في الهند منذ القدم فعبدوا الأوثان(حيوانات، شمس)، وعبادتهم (لبترا) الذي تقدم له الهدايا، وجوهر هذه الديانة الإيمان بعالم الأموات الذي يؤثر في الكون[42] ثم بعد مراحل تاريخية ظهرت ديانة جديدة هي البوهيمية وأنقسم معتنقوها قسمين، قسم موحد وقسم وثني . والنفس البوهيمية هي جوهر الحياة خالدة صافية وإذا اتصلت بالجسد تغيرت إلى الكدر وهي خالدة تنتقل من جسد الى آخر وتسمى بذلك (بتناسخ الأرواح) وظلت حتى ظهور (بوذا) الذي أوجد الديانة البوذية، وكان خبيراً بالحياة وأسرارها بهدف الخلاص من متاعب الحياة وآلامها وعلى الإنسان ان تصبو نفسه إلى السعادة (الزفانا) ان يصل الى الفناء بالتحرر من القلق، وكل التعليمات البوذية تدعو الى التأمل والتركيز الباطني ووجه التلاقي في الصوفية الإسلامية مع الديانة البوذية هو في حالة الفناء عند الصوفية التي توازي الزفانا، الحلول التي توازي التناسخ[43].

الحلول: كون أحد الجسمين طرفاً للاخر كحلول الماء في الإناء[44].

الاتحاد: تصيير الذاتين واحدة وهو حال وشهود ووجود[45].

الفناء: هو ان يفنى عنه الحظوظ ، أي ان يفنى أعماله ويبقى بما لله أي بقاء في تعظيم الله وفناء في تعظيم ما[46].

ويرى المستشرق (نيكلسون): التصوف قد يكون عن تأثيرات خارجية غير إسلامية كالبوذية وانه ليس في القرآن أصل للتفسير الصوفي للإسلام[47]. وجاء الرد عليه بالقول ان التصوف الإسلامي قد تكون من مؤثرات خارجية غير إسلامية قول فيه كثير من المجازفة ولعل الداعي اليه هو محاولة

إظهار الإسلام بمظهر المستعين بمائدة سواه، وحاشاه... ثم ان التصوف مجموعة من المبادئ والتعاليم الأخلاقية والروحية وهو قديم جداً في التاريخ كقدم النزعة التي دعت اليه وهي نزعة تصفية القلب وإخلاص العبودية لله، ولكنه لما وجد تحت ظل الإسلام وأحيط بآداب القرآن دخل في دور جديد وان كانت الرياضة من ألزم لوازمه وأوجب شروطه ونستطيع بكل سهولة ويسر ان نقول ان مافي التراث الصوفي من خلال أو تحريف أو تعطيل لقوى الخير والعمل الايجابي قد دخل على المجتمع الإسلامي من تلك التأثيرات الدخيلة على المسلمين[48].

والمستشرق (جولدتسيهر) فقد قال: أثرت العقائد الهندية في الآراء الصوفية الإسلامية فأكتسبت بفضل هذا التأثير قوة وعمقاً ونفاذاً ففكرة الاتحاد أو وحدة الوجود تخطت الصورة التي انتحلتها الصوفية من الافلاطونية الحديثة غير ان نظرية الصوفيين في فناء الشخصية هي التي تقترب وحدها من فكرة الجوهر الذاتي الهندية (أتمان-atman) اذا لم تكن تتفق معها تماماً ويطلق الصوفيون على هذه الحالة لفظ (الفناء) أو(المحو) أو(الاستهلاك)[49]. وكما ان المرء في البوذية لكي يبلغ أرقى درجات الفناء، يتقدم مرحلة مرحلة، متبعاً طريقاً يتكون من ثمانية مراحل وهو(الطريق السوي النبيل) فللصوفية طريقتها ومراتب الترقي فيها، والسائرون فيها يسمون أهل السلوك، ومهما تباينت معالم الطريق عند البوذيين والصوفيين فهما يشتركان في صدورهما عند مبدأ واحد ويتفقان في ان التأمل... ويسمى عند الصوفيين (المراقبة أو الديانة) يشغل مكاناً مهماً كمرحلة إعدادية للسير نحو أعلى مراتب الكمال، وذلك حينما يصبح المتأمل وموضع التأمل شيئاً واحداً. هذا هو الشعور بالوحدانية، وهو غاية التوحيد عند الصوفيين ويختلف اختلافاً جوهرياً عن عقيدة الوحدانية في الإسلام العادي، ويذهب أحد الصوفيين بالقول بأن من الشرك ان يزعم الإنسان بأنه يعرف الله، اذ ان هذه العبارة تفيد الثنائية بين العارف وموضع المعرفة، وهذه الفكرة توجد ايضاً في الثيوصوفية الهندية[50].

ومن المستشرقين الذين رأوا ان التصوف أُخذ من مصدر هندي ويميلون هؤلاء الى رد بعض نظريات التصوف الإسلامي وضروب معينة من الرياضيات العملية الى ما يشابهها في تصوف الهنود ومن هؤلاء نذكر(هورتن وهارتمان) فهورتن يرى ان التصوف الإسلامي انما يستمد أصوله من الفكر الهندي وقد بذل هورتن في هذا الصدد من الجهد ما لم يبذله مستشرق آخر[51].

أما هارتمان فإن خلاصة بحثه ان التصوف الاسلامي مدين للفلسفة الهندية التي وصلت اليه عن طريق (مثرا وماني) من جهة، وللقبالة اليهودية والرهبنة المسيحية والافلاطونية الحديثة من جهة اخرى وهو يرى ان الذي جمع هذه العناصر ومزجها مزجاً تاماً في التصوف هو أبو القاسم الجنيد البغدادي (ت 297هـ) . وقد ساق هارتمان حججاً كثيرة لاثبات ان مصدر التصوف الاسلامي هندي وهي:

أولاً: ان معظم أوائل الصوفية من أصل غير عربي، كإبراهيم بن أدهم، وشقيق البلخي، وأبـي يزيـد البسطامي، ويحيى بن معاذ الرازي .

ثانياً: ان التصوف أولاً وأخيراً ظهر وانتشر في خراسان .

ثالثاً: ان المسلمين أنفسهم يعترفون بوجود ذلك الأثر الهندي مثل البيروني(52).

رابعاً: ان تركستان كانت قبل الإسلام مركز تلاقي الديانات والثقافات الشرقية والغربية فلما دخل أهلها في الإسلام صبغوه بصبغتهم الصوفية القديمة وهذا كلام أشبه بما ذكره كل من (ثولك وفوكريمر) .

خامساً: ان الزهد الاسلامي الاول هندي في نزعته وأساليبه، فاستعمال الزهاد للمخلاة في سـياحاتهم واستعمالهم للسبح عادتان هنديتان .

يضاف الى ذلك التشابه بين عقائد الهنود في وحدة الوجود والفناء وعقائد الفلسفة الصوفية(53). ولكـن هذا التشابه في رأي بعض المستشرقين مثل الاستاذ براون في كتابه(تاريخ الفرس الادبي) مبالغ فيـه وسطحي أكثر من ان يكون جوهرياً(54).

ويقلل أوليري من شأن المؤثرات الهندية في التصوف الهندي قائلاً: ومما يجدر ذكـره ان الزاهـد ابراهيم بن أدهم (ت 162هـ) يوصف عادةً انه كان أميراً على بلخ ثم تنازل عن العـرش ليـصبح درويشاً ولكن الفحص الدقيق يظهر ان التأثير البوذي لايمكن ان يكون قوياً جداً . اذ ان ثمة خلافـات اساسية بين النظريات الصوفية والبوذية، ولكن الشبه الظاهري موجود بين الزفانا – البوذيـة وفنـاء النفس في الروح الالهي عند الصوفية ولكن العقيدة البوذية تمثل النفس على انها تفقد ذاتها في الطمأنينة اللاعاطفية التي هي السكينة المطلقة، في حين ان المذهب الصوفي رغم قوله بفقدان الفردية يعتبر ان الحياة اللامتناهية موجودة في التأمل الزهدي للجمال الالهي . أما الشبه الهندي للفناء فليس موجوداً في البوذية، بل في وحدة الوجود الفيدانتية(55).

وماكشفه فون كريمر من دخول العناصر الهندية والتي توجد في الاراء الدينية والاجتماعية والتـي تركت مبادئها أثرها الواضح في المسلك الشخصي لأبي العلاء وشعره الفلسفي(56).

كما ان الباحثين الانكليز وخاصةً (هوينفليد وبرون ونيكلسون) الذين قـاموا بدراسـة التـصوف الاسلامي وجعلوا من أصله ونموه موضوعاً لدراسة عميقة مستفيضة، وكانت دراستهم هذه لم تستبعد فعل المؤثرات الهندية بأعتبارها عوامل ذات أثر نافذ وقد برزت بصورة محسوسة منذ العصر الـذي انتشر فيه الاسلام شرقاً حتى حدود الصين، فتخطت افقه تدريجياً تلك الآراء الهندية التي ظهر بعضها في الآثار الادبية والبعض الآخر في الفكر الديني الاسلامي، ففي القرن (2هـ) حينما بذل المترجمون جهوداً في نقل الكتب الاعجمية لاغناء اللغة العربية، نقلـت بعـض المؤلفـات البوذيـة الـى الادب العربي(57)، وفي المجالس الخاصة للادباء والمثقفين، وهي مجالس كانت تجمع افراداً يمثلون مللاً دينية

متباينة يتبادلون الرأي فيها في حرية وطلاقة، لم تكن لتخلو ممن يعتنق (السمنية)، وهي نحلة من نحل الهند . كذلك هناك شواهد لاتقتصر على اثبات ان الافكار الهندية دخلت في محيط الفكر الاسلامي من وجهة النظر الفلسفي البحت، بل تدل ايضاً على انها كانت موضع حثهم وتجربتهم عن طريق الرهبان الرحل من الهنود، الذين كانوا على كثب من المسلمين في العراق في عهد الخلفاء الاوائل من بني العباس، كما بلغ السائحون الهنود بلاد الشام في العصر الاموي[58].

3- الديانة المسيحية

وهناك طائفة اخرى من المستشرقين رأوا ان التصوف من مصدر مسيحي ويستند القول بهذا الرأي الى حجتين: الاولى ماوجد من صلات بين العرب والنصارى في الجاهلية أو الاسلام . والثانية مايلاحظ من أوجه الشبه بين حياة الزهاد والصوفية وتعاليمهم وفنونهم في الرياضة والخلوة وبين مايقابل هذا في حياة السيد المسيح وأقواله والرهبان وطرقهم في العبادة واللبس ومن الذين يذهبون الى هذا الرأي نشأة التصوف: فون كريمر وجولدتسيهر ونيكلسون وأوليري ومركس[59].

وقد نقلت أفكار الرهبنة والزهد الى العرب نتيجة التجارة، يقول المستشرق(مركس) ان التصوف الاسلامي مأخوذ من رهبانية الشام خاضع للروحانية المسيحية[60]، ان الفرق بين الرهبنة والتصوف ان التصوف لايلجأ الى المجاهدة البدنية والنفسية كما هي عند الرهبنة المسيحية وتعذيب للبدن وانقطاع عن العالم، بل المجاهدة الصوفية نفسية من صبر وصلاة وصوم، والقرآن يشرح التصوف والذي يعتبر الداعية الى التقوى والاخلاص والمعاملات......الخ[61].

ان موضوع الرهبنة وطبيعة السيد المسيح وعلاقته بالتصوف، تظهر في ان الرهبنة رفضت كل شئ من جانب مع الترقب لملكوت الله، فكثر النساك نتيجة الاضطهاد الديني . وجوهر الرهبنة هو التحرر المطلق من كل شئ ورفض الماديات[62].

ويعتقد العلامة نولدكة ان لباس الصوف من أصل نصراني ويرى نيكلسون ان نذور الصمت وحلقات الذكر أيضاً يمكن ارجاعها الى مصدر نصراني[63].

ويقول أوليري ناقلاً عن فون كريمر ان هذا النوع من النساك هو نمو عربي محلي، تطورت به مؤثرات مسيحية تعود في تاريخها الى ماقبل الاسلام، ونحن نعرف ان الرهبانية المسيحية كانت معروفة عند العرب في البلدان الواقعة على تخوم الصحراء السورية وفي صحراء سيناء، ثم ان حياة الاديرة كانت معروفة حتى في بلاد العرب ذاتها، ومن المحتمل ان يكون النساك الاولون في الاسلام قد استوحوا مثل الرهبانية المسيحية أما مباشرة أو من خلال عزلة النبي محمد(ص) التقليدية[64].

ويفهم من كلام أوليري ان تنحث النبي محمد(ص) كان هو نفسه يتأثر من الزهد المسيحي.

أما نيكلسون فقد كان رأيه بالمؤثرات المسيحية قوله: ((من الجلي ان ميول الزهد والتأمل، التي أشرت اليها كانت على وفاق مع الفكرة المسيحية ومنها استمدت أسباب قوتها، فكثير من نصوص الانجيل، ومن الاقوال المنسوبة الى المسيح، مقتبس في أقدم تراجم الصوفية والرهبانية المسيحيون كثيراً ماكانوا يظهرون في مقام المعلمين، يولون النصح والتسديد لزهاد المسلمين المتنقلين. وقد رأينا ان ثوب الصوف- الذي منه جاء الصوفي- مسيحي الاصل، ونذور الصوم عن الكلام، والذكر، ورياضيات الزهد الاخرى، لعلها ان ترد الى هذا الاصل نفسه[65]))، وفيما يتصل بمذهب الحب الالهي فنراه يقرر ان رافده الاصلي ينزع من المسيحية على الرغم من وجود بعض منابع هذا المذهب موجودة في القرآن وان أقدم آثار الصوفية، يغلب عليها التواصي اصرار بالخوف من الله، سالكة في ذلك نهج القرآن، ولكنها مع ذلك تحمل شواهد ناطقة على التأثر بالتقليد المسيحي المعارض وهو(حب الله)[66]، فضلاً على ان تأثير المسيحية من خلال أحبارها ورهبانها وفرقها الخوارج من أمثال فرقة المصلين ذو وجهين: زهدي وصوفي[67].

أما الاسقف أسين بالاسيوس والذي يعتبر أبرز شخصية اسبانية ظهرت في هذه الدراسة واتخذ الغزالي محور دراسته فأنه أرجع روحية الغزالي بل روحية الاسلام كله الى مصادر غير اسلامية اخصها المصدر المسيحي، ويظهر انه في هذه الدعوة الاخيرة يصدر عن عقيدة وخطة موضوعية أكثر من صدوره عن منطق البحث العلمي وحده، والرجل الذي يرى المسيحية المصدر الاول الذي استمد منه الاسلام روحانيته، لايتردد بالاولى في أرجاع نشأة التصوف الى المصدر نفسه[68].

ويقرر جولدتسيهر وجود تيارين متميزين في التصوف الاسلامي: الاول الزهد وهذا في نظره قريب من روح الاسلام ومذهب أهل السنة وان كان متأثراً الى حد كبير بالرهبانية المسيحية.

والثاني التصوف بمعناه الدقيق ومايتصل به من كلام في المعرفة والاحوال والاذواق وهذا الاخير متأثر بالافلاطونية المحدثة وبالبوذية الهندية[69]، وقد أخذ بهذه التفرقة بين الزهد والتصوف كثير من الباحثين بعد جولدتسيهر[70].

وقد كان الرد عليه بالقول وان كنا لاننكر وجه الشبه بين الزهد والتصوف الاسلاميين وبين مايقابلهما عند المسيحيين من زهد وتصوف الا ان أوجه الشبه وحده لاينهض دليلاً على ان الزهد أو التصوف الاسلامي من مصدر مسيحي . وان نيكلسون يعتقد بأن لاضرورة للتحري عن أصل مبادئ الصوفية خارج دائرة الاسلام، ويعتبر ان المسيحية على حيث انها أثرت في التصوف الاانها ليست مصدراً له لان الزهد الذي قام عليه التصوف هو نفسه اسلامي . والجدير بالذكر ان الصلات التي أشار اليها أوليري ونيكلسون بين زهاد المسلمين وزهاد المسيحيين ورهبانهم بعد الاسلام يمكن ان ترد هي نفسها الى مصدر اسلامي[71] فقد أمتدح القرآن الكريم حال الرهبان والقساوسة في قوله تعالى "لتجدن أشد

الناس عداوة للذين امنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين امنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لايستكبرون"[72] صدق الله العظيم

4- الديانة اليهودية

تأثر اليهود بالزرادشتية نتيجة الاسر والسبي في بابل (586ق.م) وعاشوا تحت الحكم الفارسي ثم صاروا ضمن الامبراطورية المقدونية بالتبعية[73].

ويرى جولدتسيهر ان الصفوية تأثرت باليهودية مستدلاً بدخول بعض اليهود الاسلام ووضعهم لكثير من الاحاديث (الاسرائيليات) وان نظرية الاتحاد والحلول لدى الفلسفة الاسلامية: وذكر الشهرستاني: وجدوا التوراة مملوءة بالمشابهات مثل الصورة والمشافهة والتكلم جهراً والنزول من طور سيناء . والاستواء على العرش استواء .

وينقض بعضهم هذه الاقوال بأن الاستواء والتكلم جهراً والتجسيم ليس من الصوفية فهذا دخيل عليها وهناك فرق بين الفلسفة والتصوف[74].

5- الديانة الغنوصية

وقد تطرق أوليري الى الاثر الغنوصي الذي وصل بواسطة الصابئة الذين كانوا يقطنون منطقة المستنقعات مابين واسط والبصرة، وهؤلاء كانوا يسمون (الندعيين)، وذلك لتمييزهم من صابئة حران، والمتصوف معروف الكرخي نفسه كان ابناً لوالدين من هؤلاء الصابئة[75]. وقد عاش في خلافة هارون الرشيد وقد وصف بأنه كان ذا نشوة الهية، مع ذلك فهو يستحق الوقوف على رأس مدرسة التصوف التقشفي كمدرسة مباينة لمدرسة التصوف الحلولي أو الرمزي[76]. وقد عرف التصوف بانه: الاخذ بالحقائق واليأس مما في ايدي الخلائق. والغنوصي فيلسوف ديني يزعم لنفسه المعرفة الكاملة بطبيعة الله وصفاته وتقارب الغنوصية عقيدة الافلاطونية والمانوية[77].

أما نيكلسون فقد أكد على ان نظرية (المعرفة) في تفكير الصوفية الاولين تفترض اتصالاً بالغنوصية المسيحية[78]. أما نص السبعين ألف حجاب والذي يؤكد نيكلسون انه يعرض آثاراً واضحة للغنوصية حيث قام بذكر النص كاملاً اعتقاداً منه لبلوغ أهميته وهو: سبعون ألف حجاب تفصل بين الله- الحق الاحد- وبين عالم الحس والمادة وكل روح تمر قبل مولدها خلال هذه السبعين الفاً، نصفها الباطن من نور ونصفها الظاهر من ظلمة فإذا مرت خلال حجاب من حجب الظلمة تسربت حالة من الحالات الدنيوية ومن أجل ذلك يستهل الطفل صارخاً لان الروح تتذكر شيئاً مما فقدت. وقد جر احتراق الحجب عليها النسيان ومن هنا سمي الانسان انساناً. وهو الآن سجين جسمه، مقطوعاً عن الله بهذه الحجب الكثيفة[79].

" وجماع غرض الصوفية – طريق الدراويش – ان تهئ له مهرباً من هذا السجن، ان ترفع عنه هذه الحجب السبعين وان تعيد اليه الوحدة الاصيلة بالواحد الاحد وهو لايزال في جسمه فالجسد لايخلع ولكن يصفى، ويجعل روحانياً فيكون عوناً للروح لاعقبة في سبيلها انه كالمعدن الذي يصفى بالنار ويغير. والشيخ يخبر مريده بأن عنده سر تغييره فيقول له: سنلقيك في نار الاحساس الروحي وستطفو نقياً "[80].

6- الفلسفة اليونانية وأثرها على التصوف

وبعض من المستشرقين ذهبوا الى ان التصوف الاسلامي يرد الى مصدر يوناني. والقائلون بهذا المصدر كثيرون الأنهم يعنون بالتصوف الاخذ من مصدر يوناني نوعاً خاصاً منه هو التصوف الالهي الفلسفي الذي بدأ بالظهور في القرن (3هـ) على يد ذو النون المصري(ت 242هـ) . فالمستشرق أوليري يرى ان التيار الافلاطوني المحدث كان جزءاً من الاثر الذي أحدثه في الاسلام نقل الفلسفة اليونانية الى العربية في العصر العباسي . ولقد سبق هذا التأثير المباشر لنقل الفلسفة وفروع الثقافة الاخرى الى العربية أثر غير مباشر وصل عن طريق السريانية، والفارسية وهذا كان ايضاً في شكل اللاهوت الافلاطوني المحدث، اذ ان المؤثرات الافلاطونية المحدثة كانت قد عملت عملها في السوريين والفرس قبل الاسلام[81].

لقد ازدهرت الترجمة في العصر العباسي وبصم الفكر الاغريقي طابعه على الثقافة العربية الاسلامية وأثرت على ثقافة المتكلمين كما أثرت الافلاطونية الحديثة على الصوفية.

ويقول نيكلسون: لكني على يقين من اننا اذا نظرنا الى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق استحال علينا ان نرد أصله الى عامل هندي أو فارسي، ولزم ان نعتبره وليد اتحاد الفكر اليوناني والديانات الشرقية أو بعبارة أدق وليد الاتحاد للفلسفة الافلاطونية الحديثة والديانة المسيحية والمذهب الغنوصي[82].

أما جولدتسيهر فقد قام بالتفرقة بين تيارين مختلفين في التصوف الاسلامي:

الاول: الزهد وهذا في نظره قريب من روح الاسلام ومذهب أهل السنة وان كان متأثراً الى حد كبير بالرهبانية المسيحية.

والثاني: التصوف بمعناه الدقيق ومايتصل به من كلام في المعرفة والاحوال والاذواق وهو متأثر من ناحية بالافلاطونية الحديثة ومن ناحية أخرى بالبوذية الهندية[83].

وأخذ نيكلسون بالتفرقة التي وضعها جولدتسيهر بين حركتي الزهد والتصوف في الإسلام فأرجع الزهد الى عوامل قوية الى داخل الإسلام نفسه والى انتشار الشعور باعتزال العالم والهرب من الدنيا وويلاتها بين المسلمين في القرن (1هـ) وبين رأيه في مدى تأثير المسيحية والعوامل الأجنبية الأخرى

والزهد وانتهى الى ان الزهد الإسلامي وليد عوامل إسلامية في صميمها. أما التصوف فيرجع نشأته الى عوامل خارجة عن الاسلام، عملت عملها ابتداء من القرن(3هـ) وأهم هذه العوامل وأبرزها في نظره هو الأفلاطونية الحديثة المتأخرة التي كانت شائعة في مصر والشام الى عهد ذي النون المصري ومعروف الكرخي ولهذا يتخذ من ذي النون المصري محوراً لبحثه، ويستدل بالأسانيد التاريخية على ان ذا النون كان على علم بالحكمة اليونانية الشائعة في عصره ويتتبع حركة الثقافة اليونانية المتأخرة وطرق وصولها الى المسلمين وينتهي الى ان التصوف في ناحيته النظرية مأخوذ من الافلاطونية الحديثة موافقاً في ذلك رأي ماركس الذي شرح هذه النظرية في كتابه (التاريخ العام للتصوف ومعالمه)[84].

أما ماسنيون فلا يؤيد رأي جولدتسيهر بقوله " ولا نستطيع ان نقول مع جولدتسيهر" وعبر برأيه بقوله: واذا كان غير مذكور ان التصوف لم يخل من تأثر ببعض ماوصل الى المسلمين من معارف الأمم القديمة فإنا لا نزال نجد الصيغة الإسلامية غالبة في هذا العلم الوليد[85].

ويذهب مذهب افلاطون حول الله والنفس والعقل فالله جوهر المذهب وهو المحبوب المبدع وهو قديم لايتغير وان الجواهر العقلية قد فاضت مراتبها نتيجة اختلافها قرباً أو بعداً من النوع الاول، والنفس جوهر كريم وهي نقطة تدور حول العقل، والعقل جزء يهيم باشتياق الى الله والنور الاول وان الذين اذا ارادوا الحكمة تشوقت نفوسهم الى صانعها الحكيم ومن هنا قيل ان الله هو المعشوق الاول. والصوفي ايضاً يريد هذا الجذب ليحقق ذاته مع الله. أما الافلاطونية الحديثة زعيمها هو أفلوطين(204- 261م) وهو صاحب المذهب الاسكندري، يذهب الى ان الله هو الاول والآخر ومنه يصدر كل شئ، وان الاتصال بالله والفناء فيه هو الهدف الحقيقي وهو أسمى من الجمال والحقيقة والخير فالعالم يفيض من الله ولم يخلقه لان الخالق يتطلب الارادة والشعور[86].

ويتفق أفلوطين مع الصوفيين المسلمين في رياضة النفس والاتصال بالله مع اشتراط الذهول لحدوث ذلك بمداومة النفس ليتم الاتصال (بالله) وتخسر وجودها الجزئي وتشعر بالسعادة لانها أصبحت شيئاً واحداً مع الله[87]. كما اتفقوا في النظرة الشمولية ونظرية الاشراق والمعرفة والفكر ومع ذلك فالخلاف واضح لكون الفلسفة اليونانية وثنية تؤمن بتعدد الآلهة، والتناسخ والاتصال سلبي غير شخصي عند أفلوطين والهنود، وايجابي شخصي عند المسلمين.

فأبن عربي(638هـ) خرج بالتصوف الى شبه فلسفة في شعره وفكره ويذهب الى ان الوجود في جوهره واحد ووجود الاشياء جميعها انما هو الله[88]. وأبن عربي يريد اثبات شخصية الانسان في الوجود الاله بأسلوب وجداني رمزي[89]. وقد تحول الحب الالهي عنده الى فكرة وحدة الوجود فليست في الكون حركة الا وهي " حبية"[90].

أما الاشراق فبدأ من الفلسفة الافلاطونية التي ترى ان الله نور الانوار ومصدر جميع الكائنات وهو عند الصوفيون ظهور الانوار العقلية وفيضانها بالاشراقات على الانفس عند تجردها[91].

يقول الصوفي السهروردي في دعائه: الاشراق سبيلك اللهم نحن عبيدك لانك انت المبدأ الاول والغاية القصوى فالاشراق هو سبيله الى الفيض العلوي لمن امتلأ قلبه حكمة فهو أحبها ووضع لها شروطاً للوصول اليها كالانقطاع عن الدنيا ومشاهدة الانوار الالهية كما قرت الفلسفة بالتصوف وسمي الفيلسوف المتصوف بالحكيم الذي يتذوق الحكمة، وكان يرد كل شئ الى نور الله وفيضه[92].

وتحدث الصوفيون عن الاشراق بذكر رحلاتهم الروحية مع الذات الالهية والروح القدس وعنى أصحاب هذا المذهب بالحكمة المشرقية وهي تعبير عن تلاميذ السهروردي كما نلقاها عند ابن سينا والفارابي[93].

وقد أكد نيكلسون على الاصل الثيوصوفي للتصوف بقوله: بعد ان نأخذ بنظر الاعتبار الزمان والمكان والظروف التي ظهر فيها وبعد ان نمعن في طبيعة الانسان الذي اضطلع بالدور الرئيسي في تطوره لايسعنا ان نتردد، على ماأعتقد في تأييد كونه نتاج التأمل اليوناني وقد تدفق تيار الثقافة الهيلنية (اليونانية) خلال الخمس والسبعين سنة (170هـ / 247هـ) هذه بلا انقطاع الى العالم الاسلامي وترجم العديد من مؤلفات فلاسفة اليونان واطبائهم وعلمائهم ودرست بلهفة وشوق، وهكذا أصبح الاغريق أساتذة العرب وكونت حكمة اليونان القديمة أساس العلم والفلسفة عند المسلمين، لكن المسلمين لم يتشبعوا بالهيلنية عن طريق الادب فقط، ففي العراق والشام ومصر وجدوا أنفسهم على تربتها الاصلية التي أنتجت على وجه التأكيد حصاداً وفيراً من الافكار الافلاطونية الجديدة – والغنوصية والمسيحية والصوفية ووحدة الوجود على حد سواء.

وقد عاش في بلاد مابين النهرين قلب الامبراطورية العباسية قوم غرباء كانوا في الحقيقة وثنيين سوريين واستمرت الطبقة المثقفة بالأخذ بفلسفة دينية وهي الافلاطونية الجديدة[102]. وقد أكد جولدتسيهر على ان الجانب التأملي والثيوصوفي للتصوف الذي أحكم تكوينه الاول مرة في العراق ومصر والشام يحمل امارات التأثير الهليني الذي لاينكر[94].

7- الأصول الإسلامية

وبعد استعراض الآراء التي قيلت في نشأة التصوف نرى ان الصوفية في الإسلام لم يكونوا مجرد نقلة عن الفرس أو المسيحيين أو اليونان أو غيرهم لان التصوف متعلق أساسا بالشعور والوجدان والنفس الإنسانية، على الرغم من اختلاف الشعوب والأجناس وما تصل اليه نفس بشرية بطريقة المجاهدات والرياضيات الروحية قد تصل اليه أخرى دون اتصال واحدة منهما بالاخرى وهذا يعني وحدة التجربة الصوفية وان اختلف تفسيرها من صوفي الى آخر بحسب الحضارة التي ينتمي اليها.

وعلى ذلك فالتشابه بين التصوف الاسلامي وغيره من انواع التصوف الأجنبية لايغير دائماً وأبداً أخذه عنها وإنما الأرجح ان يكون التصوف الإسلامي صادراً عن بواطن صوفية المسلمين اذ معرفتهم كما يقولون هم أنفسهم لا تتأتى عن طريق النقل والبرهان[95].

ولعل بعض المستشرقين قد دارت بأذهانهم مثل هذه الفكرة ومن أمثلة هؤلاء المستشرق سبنسرترمنجهام في كتابه (الطرق الصوفية في الإسلام) وهو من المستشرقين المعاصرين الذين يميلون الى الأخذ بالرأي القائل ان التصوف من مصدر اسلامي خالص وان الأثر الاجنبي في مجاله محدود للغاية وان تطوره يتبع خطاً اسلامياً واضحاً، وذلك بقوله: ان التصوف الاسلامي تطور طبيعي داخل حدود الإسلام ولا يمت إلاّ بصلة طفيفة للمصادر غير الإسلامية. ويقصد ترمنجهام التصوف الفلسفي حيث ان نظريات بعض متقدمي المستشرقين في مصدره لم تكن صحيحة أو منصفة وان الأثر الأجنبي في ميدانه لم يظهر الا في وقت متأخر من تاريخ الإسلام وانه محدود للغاية وعند طائفة قليلة من رجاله[96]. وان أحد المستشرقين الذي هداه الله للإسلام وهو الدكتور(مارتن لتجز) وتسمى بأسم (أبو بكر سراج الدين) قال: لقد جذبني بما فيه من مُثل إنسانية وآداب ذوقية وفهم صحيح واضح للانسان والله والعلاقة بينهما هي علاقة لم تحدد ولم ترسم في أي ثقافة أوعقيدة كما حددت ورسمت في التصوف الإسلامي. وقال: ان التصوف هو مثالية الإسلام وان الصوفية هي التطبيق العملي لهذه المثالية وعهد الصحابة لا مقارنة بينه وبين أي عصر بعده وروح هذا العصر وامتداده لاتوجد إلا في التصوف[97].

وقد أخطأ رجال الاستشراق خطأ كبير في دعواهم ان التصوف الإسلامي استمد أصوله من الثقافات غير الإسلامية، فأساس التصوف نجده في القرآن والأحاديث ومنهج الرسول(ص) وحياة الصحابة. هذا الرأي نجده عند (ماسنيون) وهو من المستشرقين الذين نظروا الى مسألة مصدر التصوف نظرة علمية منصفة حيث أتخذ لإثبات نظريته في التصوف منهجاً علمياً دقيقاً، وهو بحث مصطلحات الصوفية وإرجاعها إلى مصادرها الأولى مظهراً بذلك العوامل التي ساعدت على نشأة التصوف في الإسلام وقد كان لها الأثر في تكوينه وتطوره وقد كتب ذلك في كتابه(بحث في أصول المصطلح الفني للتصوف الإسلامي) وانتهى من بحثه الى ان مصادر المصطلحات الصوفية أربعة:-

1- القرآن .

2- العلوم العربية الإسلامية كالحديث والفقه والنحو وغيرها.

3- مصطلحات المتكلمين الأوائل.

4- اللغة العلمية التي تكونت في الشرق في القرون الستة المسيحية الأولى من لغات أخرى كاليونانية والفارسية وغيرها وأصبحت لغة العلم والفلسفة[98].

بالإضافة الى رأيه الذي ذكره في كتاب آخر وهو ان التصوف حتى القرن (4هـ) لا يقع تحت طائلة التأثيرات الأجنبية إلا قليلاً اذ كان اسلامياً في جوهره فنتاج دراسة مركزة للقرآن والتأمل الداخلي في معانيه وجوهر طبيعته(99). وقد عدل المستشرق الانجليزي نيكلسون عن موقفه في مسألة نشأة التصوف ومال الى رده الى مصدره الإسلامي حيث يقول: كل الأفكار التي وصفت بأنها دخيلة على المسلمين ووليدة ثقافة أجنبية غير اسلامية انما هي وليدة الزهد والتصوف اللذين نشآ في الإسلام وكانا إسلاميين في الصميم(100).

وأكد نيكلسون ان اطلاق الحكم بأن التصوف دخيل في الاسلام غير صحيح، فالحق إننا نلاحظ منذ ظهور الاسلام ان الانظار التي أختص بها متصوفة المسلمين نشأت في قلب الجماعة الاسلامية نفسها أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث(101)، ويعتقد ان لا ضرورة للتحري عن أصل مبادئ الصوفية خارج دائرة الاسلام " وان كان من الخطأ تجاهل أثر المسيحية ولكن ألم تنشأ الصوفية من الزهد والزهد في طبيعته اسلامي رغماً عن المؤثأ الصوفية من الزهد والزهد في طبيعته اسلامي رغماً عن المؤثرات الخارجية كالمسيحية مثلاً"(102).

وقد بين البروفسور براون في كتابه (تاريخ فارس الادبي) عدة نظريات متلاحمة والتي تدعي: ان التصوف مدين بوحيه الى الفلسفة الهندية، أو ان أكثر الافكارالمميزة للصوفية ذات أصل فارسي،وان هذه الأفكار مستنبطة من الافلاطونية الجديدة. ولما كان التصوف في جميع العصور والامصار هو نفس الشئ في جوهره مهما أمكنه ان يتحور ببيئته الخاصة وبالدين الايجابي الذي يتشبث به للصمود نجد أنظمة بعيدة وغير مترابطة ترينا تماثلاً متقارباً بشكل خارق بل متطابق في عدة مظاهر من التعبير ولايمكن لهذه التشابهات ان تبرهن إلا على شئ ضئيل أو لاشئ إلا اذا تأكدت بالبرهان المستند على أسس تاريخية وقد أهمل الكثير من الكتاب في موضوع الصوفية هذا المبدأ ومن هنا كان التشويش والاضطراب الذي شاع طويلاً، ولكن رغم ان التصوف لم يخلقه أي دافع خارجي فأن التأثيرات قد أسهمت اسهاماً كبيراً في جعله على ماهو عليه وتلوينه عميقاً بحيث لايسع أي دارس لتاريخ التصوف اهمالها(103).

وهنا نرى من الاهمية ان نستعرض آراء أحد باحثينا العرب المتخصصين بالتصوف، رداً على آراء أحد المستشرقين وهو نيكلسون والذي شكل موضوع التصوف عنده جانب عظيم من الاهمية، والى ماذهب من آراء تخص جانب هذا الموضوع: حيث ان نيكلسون ذهب الى القول الى ان الصوفية الاسلامية قد تكونت من تأثيرات خارجية غير اسلامية هي المسيحية والافلاطونية الحديثة والبوذية ويعود ليخفف حدة حكمه بقوله: والقرآن مهما يكن مغاضباً للتصوف فأني لاأكاد أجد عندي القبول للرأي الذي يذهب الى انه ليس في القرآن أصل للتفسير الصوفي للاسلام(104)، وكان الرد على هذا

الرأي هو: اننا نعلم ان كلمة التصوف لم تذع بمعناها الاصطلاحي إلا بعد نزول القرآن بزمن فليس بمعقول والواقع ماذكرنا ان يأتي ذكر لمعارضة التصوف أو مغاضبته في القرآن . ثم ان التصوف مجموعة من المبادئ والتعاليم الاخلاقية الروحية ونستطيع بكل سهولة ان نقول ان مافي التراث الصوفي من ضلال أو تحريف قد دخل على المجتمع الاسلامي من تلك التأثيرات الدخيلة على المسلمين . وان التصوف بمعناه العام قديم جداً في التاريخ قدم النزعة التي دعت اليه وهي نزعة تصفية القلب واخلاص العبودية لله . ولكنه لما وجد تحت ظل الاسلام وأحيط بآداب القرآن دخل في دور جديد وان كانت الرياضة من ألزم لوازمه وأوجب شروطه[105].

أما رأي نيكلسون حول حب الله، حيث يقرر ان ايما فرد كان على علم بالشعر الصوفي في الاسلام وان قل هذا العلم يدرك ان شوق الروح الى الله قد عبر عنه الصوفية في عبارات تكاد تكون عبارات المتغزلين وذوي النسب من الشرقيين، وقد جعلوا هذا الاسلوب الرمزي قناعاً يسترون به الامور التي رغبوا ان يكتموها وهذه الرغبة طبيعية عند قوم يدعون انهم خصوا دون غيرهم بمعرفة الباطن[106]. ويذكر ان بعض منابع هذا المذهب موجودة في القرآن ولكن رافدها الاصيل دون ريب ينزع عن المسيحية، وأقدم آثار الصوفية يغلب عليها التواصي في اصرار بالخوف من الله سالكة في ذلك نهج القرآن ولكنها مع ذلك تحمل شواهد ناطقة على التأثر بالتقليد المسيحي المعارض وهو " حب الله "[107].

ويمكن القول هنا ان نيكلسون يخطأ هنا حيث ان حب الله قد جاء التصريح به في القرآن أكثر من مرة وجماعات الصوفية قد تكونت وتبلورت بعد نزول القرآن بأجيال فما الذي يجعل الصوفية المسلمين ينتزعون مذهب "حب الله" من المسيحية بينما هو موجود في كتابهم الالهي[108]. أما مايتصل بموضوع المحبة عند الصوفية وهو يناقض الخوف من الله، فهنا لايمكن للصوفي في علاقته بالله ان يجمع بين الحب والخوف وان محبة العبد لربه لاتتناقض مع خوفه منه فهو في حبه يتطلع الى رحمة الله ونعمته وبركاته وهو في خوفه يتطلع الى جلال الله وقدرته وعظمته ويحذر عقابه وغضبه وكما يجمع الله بين صفتي المنعم والمنتقم يجمع العبد بين صفتي الحب لله والخوف منه[109].

ثالثاً: نظرية المعرفة عند الصوفية

وضع الاستاذ نيكلسون ملخصاً لنظرية المعرفة في التصوف الاسلامي في قوله: لقد ميز الصوفية بين ثلاثة أشياء، القلب والروح والسر[110].

فالقلب يستطيع ان يتعرف كل الاشياء وما حياتها واذا اضئ بالايمان والمعرفة استطاع ان يعكس على صفحته كل مايحويه العقل الالهي.

ويتنازع القلب قولان، أحدهما المعرفة التي تفيض من الله على العبد والاخرى هي أوهام الحس والمرء لايعرف الله بالحس لانه مادي ولابالعقل والمنطق لانهما لايخرجان عن دائرة المتناهي بل بالفيض والوحي والالهام.

فالقلب يضم بين جوانحه العالم كله والله وحده هو الذي ينير القلوب، ويزيل مايغشيها من شوائب الحس، وذلك بتآزر العبد مع الرب في ذلك، وأعني بالمجاهدات والرياضيات والافعال التي لاتصدر عن الله أفعال باطلة وكل مايعمله الصوفي معرفة مباشرة لانها تستند على الوحي أو على الرؤية المباشرة فهي ليست نتيجة لاية عملية عقلية وانما تعتمد كلياً على ارادة الله ومحبته وفيضه على من اصطفى من عباده(111). وبالرغم من اتفاق المسلم العادي والصوفي من ان الله واحد، فإن الاول يعني بذلك انه واحد في ماهيته وصفاته، أما الآخر فيرى ان الله هو الواحد الحقيقي الذي لايوجد غيره في الكون فهو يتضمن كل الظواهر الاخرى ولما كان الصوفي لايعرف الله وكل أسرار الوجود إلا اذا وجدها في نفسه فهو بذلك يعتبر عالماً صغيراً فمعرفة الصوفي اذن اتحاد(112).

وتتلخص نظرية الصوفية في المعرفة ان النفس جوهر غير جسماني مستقل عن البدن في وجوده وتصرفاته وهذه النفس كانت منفصلة عن البدن في عالم علوي ثم هبطت الى العالم الارضي، فنسيت ماكانت قد علمته أيام ان كانت في الملأ الاعلى، ومعرفة النفس هي المفتاح لمعرفة الله تعالى(113). فخاصة الانسان العلم والحكمة وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الانسان والنفس محل العلم، فخاصية الانسان حب معرفة حقائق الاشياء(114) وجملة عالم الملكوت والملك اذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لانها محيطة بكل الموجودات(115).

أما طرق المعرفة فهي تحصل في القلب في بعض الاحوال وتارة يلهم بها وتارة تأتي عن طريق الاستدلال والقياس وغيرهما من طرق العلم فتكون مكتسبة . ومن ذلك يتبين ان الصوفية لم يحرصوا على دراسة العلوم وتحصيلها طلباً للحقيقة وانما أخذوا انفسهم بالرياضة والاقبال على الله اعتقاداً منهم ان ذلك هو طريق المعرفة فإنا نكاد نراهم مجمعين على ان الدليل على الله هو الله وحده، وقال بعض الصوفية "لايعرفه إلا من تعرف اليه ولايوحده إلا من توحد له ولايؤمن به الا من لطف له ولايصفه الا من تجلى لسره ولايخلص له الا من جذبه اليه ولايصلح له الا من اصطنعه لنفسه(116). وقيل (معنى من تعرف اليه) أي من تعرف الله اليه ومعنى من توحد له أي اراه انه واحد(117).

المصادر

1- من أجلة المشايخ توفي (303هـ) وكان مقرئاً فقيهاً .

الكلاباذي، تاج الاسلام أبو بكر محمد(ت 280هـ) - التعرف لمذهب أهل التصوف - تحقيق: د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور- القاهرة - 1960م- ص30.

2- الطيباوي، عبد اللطيف- التصوف الاسلامي العربي- بيروت- 1928م- ص20.
3- أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق وكان فقيهاً على مذهب أبي ثورمان سنة 297هـ . الطوسي، أبي نصر السراج- اللمع في التصوف- تحقيق: د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي- بغداد- 1960م- ص45.
4- الكلاباذي- التعرف لمذهب أهل التصوف- ص25؛ الطيباوي- التصوف الاسلامي العربي- ص20.
5- الكلاباذي- م.ن .
6- القشيري، أبو القاسم عبد الكريم (ت 465هـ) - الرسالة القشيرية في علم التصوف- دار التربية للطباعة والنشر- ص126.
7- مبارك، د. زكي- التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق- بيروت- ج1- ص43.
8- الخفاجي، محمد عبد المنعم -الادب في التراث الصوفي - القاهرة -1938م- ص53-55.
9- بدوي، عبد الرحمن - تاريخ التصوف الاسلامي حتى نهاية القرن 2هـ - الكويت - 1975م- ص9.
10- م.ن .
11- ماسنيون وعبد الرزاق، مصطفى- التصوف- لبنان- 1984م- ص26.
12- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد - في تحقيق ماللهند - مطبعة دائرة المعارف العثمانية- الهند- 1958م- ص24-25؛ محمود، عبد الحليم- أبحاث في التصوف- القاهرة- ص154.
13- زيدان، جرجي- تاريخ آداب اللغة العربية- بيروت- ج2- 1973م- ص322.
14- أوليري، دي لاسي- الفكر العربي ومركزه في التاريخ- ترجمة: اسماعيل البيطار- بيروت- 1972م- ص155.
15- بدوي- تاريخ التصوف الاسلامي- ص9؛ الطيباوي- التصوف الاسلامي العربي- ص23.
16- نيكلسون- الصوفية في الاسلام- ترجمة: نورالدين- مصر- 1951م- ص3-4.
17- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد- المقدمة- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- ص370-371.
18- أوليري - الفكر العربي ومركزه في التاريخ- ص155.
19- جولدتسيهر، أجناس- العقيدة والشريعة في الاسلام- ترجمة: محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر- القاهرة- 1946م- ص123.
20- ماسنيون وعبد الرزاق - التصوف- ص25.
21- وكان لقباً أعطي لبعض فقراء المسلمين في عهد الرسول(ص) ولم تكن لهم بيوت فكانوا يأمرون الى مقعد وغطى الى المسجد. الزبيدي، محمد مرتضى- تاج العروس من جواهر القاموس- ج4- ص42.
22- ماسنيون وعبد الرزاق - التصوف- ص26.
23- م.ن- ص25.
24- نيكلسون- الصوفية في الاسلام- ص4.
25- ماسنيون وعبد الرزاق - التصوف- ص28.
26- الشرباصي، أحمد- التصوف عند المستشرقين- القاهرة- 1961م- ص15.
27- المكي، أبوطالب محمد بن علي(ت 386هـ)- قوت القلوب- مصر- 1932م- ج4- ص47؛ مبارك- التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق- ج1- ص45.
28- الشرباصي - التصوف عند المستشرقين- ص15.

29- مبارك- التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق- ج1- ص45.
30- هدو، محمد علي- التصوف الاسلامي محاولة لفهم جديد- بحث منشور في مجلة دراسات فلسفية- بيت الحكمة- سنة 2000- ص18.
31- الساموك، د. سعدون حمود العاني، د. عبد القهار داوود- مناهج المستشرقين- جامعة بغداد- كلية الشريعة- بيت الحكمة- 1989م- ص210.
32- نيكلسون- في التصوف الاسلامي وتاريخه- ترجمة: أبو العلا عفيفي- القاهرة- 1947م- ص5.
33- قاسم، عبد الحكيم عبد الغني- المذاهب الصوفية ومدارسها- القاهرة- 1989م- ص28.
34- م.ن- ص30-37.
35- التفتازاني، د. أبوالوفا الغنيمي- مدخل الى التصوف الاسلامي- القاهرة- 1976م- ص30.
36- م.ن- ص31.
37- م.ن .
38- م.ن .
39- أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي واحياناً يلقب بالبسطامي الاكبر، كان جده مجوسياً فأسلم. توفي 261هـ . ابن الاثير، ابو الحسن علي بن محمد ابن ابي الكرم(ت 630هـ)- اللباب في تهذيب الانساب- نشره حسام الدين- القاهرة- 1356هـ- ج1- ص123-124.
40- لاندو، روم- الاسلام والعرب- ترجمة: منير البعلبكي- بيروت- ص232.
41- جيادوك، بوتان معروف- الصوفي الشهيد- بغداد- 1980م- ص22.
42- قاسم- المذاهب الصوفية ومدارسها- ص36.
43- م.ن .
44- أبو خزام، أنور فؤاد- معجم المصطلحات الصوفية- لبنان- 1993م- ص27.
45- م.ن- ص38.
46- الكلاباذي- التعرف لمذهب أهل التصوف- ص142-144.
47- نيكلسون- الصوفية في الاسلام- ص26.
48- الشرباصي - التصوف عند المستشرقين- ص18-19.
49- جولدتسيهر - العقيدة والشريعة في الاسلام- ص 144.
50- م.ن- ص 145.
51- التفتازاني - مدخل الى التصوف الاسلامي- ص35.
52- قاسم- المذاهب الصوفية ومدارسها- ص32.
53- نيكلسون- في التصوف الاسلامي وتاريخه- ص ح.
54- التفتازاني - مدخل الى التصوف الاسلامي- ص36.
55- أوليري - الفكر العربي ومركزه في التاريخ- ص163.
56- جولدتسيهر - العقيدة والشريعة في الاسلام- ص 142.
57- م.ن- ص141.

58- م.ن .
59- التفتازاني – مدخل الى التصوف الاسلامي- ص32.
60- الخفاجي – الادب في التراث الصوفي- ص35-36.
61- المنوفي، أبو الفيض- المدخل الى التصوف الاسلامي- القاهرة- ص31.
62- م.ن- ص28.
63- الطيباوي – التصوف الاسلامي العربي- ص38.
64- أوليري – الفكر العربي ومركزه في التاريخ- ص159.
65- الصوفية في الاسلام- ص12-13.
66- م.ن- ص54.
67- م.ن- ص13-14.
68- ماسنيون وعبد الرزاق – التصوف- ص ك .
69- جولدتسيهر – العقيدة والشريعة في الاسلام- ص 145.
70- التفتازاني – مدخل الى التصوف الاسلامي- ص33.
71- م.ن .
72- سورة المائدة- آية / 81.
73- قاسم- المذاهب الصوفية ومدارسها- ص33.
74- م.ن .
75- أوليري – الفكر العربي ومركزه في التاريخ- ص163.
76- نيكلسون- الصوفية في الاسلام- ص 19، نقلاً عن القشيري في الرسالة القشيرية- ص12.
77- نيكلسون- في التصوف الاسلامي وتاريخه- ص 28.
78- نيكلسون- الصوفية في الاسلام- ص 19.
79- م.ن- ص20.
80- م.ن- ص20-21.
81- أوليري – الفكر العربي ومركزه في التاريخ- ص161.
82- نيكلسون- في التصوف الاسلامي وتاريخه- ص 7؛ المنوفي – المدخل الى التصوف الاسلامي- ص32.
83- جولدتسيهر – العقيدة والشريعة في الاسلام- ص133- 136.
84- نيكلسون- في التصوف الاسلامي وتاريخه- ص 7.
85- ماسنيون – التصوف- ص75.
86- الخفاجي – الادب في التراث الصوفي- ص206-207.
87- فروخ، عمر- التصوف في الاسلام- بيروت- 1947م- ص32.
88- ابن عربي- فصوص الحكم- تحقيق: ابو العلا عفيفي- دارالكتاب العربي- ص110.
89- الخفاجي – الادب في التراث الصوفي- ص190.
90- ابن عربي- ديوان ابن عربي- شرح وتقديم: نواف الجراح- بيروت- 1999م- ص231.

91- الطوسي- اللمع في التصوف - ص128.

92- الخفاجي - الادب في التراث الصوفي- ص130.

93- م.ن- ص131.

94- نيكلسون- تاريخ الادب العباسي- ترجمة وتحقيق: د. صفاء خلوصي- بغداد- 1967م- ص193-194.

95- م.ن- ص197.

96- التفتازاني - مدخل الى التصوف الاسلامي- ص40-41.

97- م.ن- ص43-44.

98- عياد، أحمد توفيق- التصوف الاسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره- القاهرة- 1970م- ص20-21.

99- التفتازاني - مدخل الى التصوف الاسلامي- ص43.

100- نيكلسون- تاريخ الادب العباسي- ص187.

101- نيكلسون- في التصوف الاسلامي وتاريخه- ص 7.

102- ماسنيون - التصوف- ص48.

103- الطيباوي - التصوف الاسلامي العربي- ص37.

104- نيكلسون- تاريخ الادب العباسي- ص187-188-189.

105- نيكلسون- الصوفية في الاسلام- ص26.

106- الشرباصي - التصوف عند المستشرقين- ص18-19.

107- نيكلسون- في التصوف الاسلامي وتاريخه- ص100-101.

108- م.ن- ص109.

109- الشرباصي - التصوف عند المستشرقين- ص54.

110- م.ن- ص57.

111- نيكلسون- الصوفية في الاسلام- ص70.

112- م.ن- ص72-73.

113- م.ن- ص79-80.

114- زايد، سعيد- التصوف الاسلامي- مجلة العربي- الكويت- 1972م- ع161- ص106.

115- الكلاباذي- التعرف لمذهب أهل التصوف- ص66.

116- م.ن- ص132.

117- زايد - التصوف الاسلامي- ص106.

118- الكلاباذي- التعرف لمذهب أهل التصوف- ص64.